

## ضوء التبشير

كان يقف معتداً معتزلاً بنفسه، كله ثقة، حسبته مغروراً ذائباً فى عشق الذات تآهب وانتفخ صدره وارتفعت مخارج الأصوات أتية من أعماق سحيقة فى باطنه كان صوته صادحا عالياً واثقا، جاء مع تباشير الفجر والظلمة تفرج رويدا رويدا غن النور، عمليا لم أكن انتبهت قط لأصوات مثل هذه، لا فى الريف حيث تكثر ولا فى القاهرة حيث تنعدم الحياة الطائرة المغردة، عمليا لم أفرق بين الزقزقة والنعيق لكنه كان حقا يصفر لحناً طويلاً جميلاً بمقاطع وأجزاء وقد حسبت أذنى قد خدعتني، إلا إنه استمر يكرر اللحن بتوافق أرغوانى عجيب، كان مشهدا فريدا لا يتكرر، عندها قررت إلا أستمتع به وحدي، كانت مشغولة فى الطناجر والصحون المتسخة، عازمة على الانتهاء سريعا حتى تلحق اليوم الدراسى المبكر وبعد معاندة قصيرة استجابت لتنصت معى لذلك المغرد الصغير الواقف على هوائى التليفزيون الممتد من العمارة المجاورة ناشرا أصابعه فى الفضاء لالتقاط البث، قالت: شكله لطيف وكأنه يستعرض قدراته أمام مشاهديه، الغريب إنه لا يقف على شجرة وكأنها تذكرت فجأة مطلع اغنية راحت تغنى هى الأخرى بصوت

خافت تماماً، أستوقفه...؟ وتوقف عنده، ثم عاد بصوت أكثر جمالاً  
ونبرة أكثر ارتفاعاً، اجبرتها على الصمت والاستماع بشدة ويبدو  
أن ذلك أسعده، فراح يتحرك إلى اليمين واليسار فى قفزات متتالية  
متأنية، أو كان يرقص على أنغام الطرب الصادح من حنجرتة ربما،  
طار بعد أن توقف فجأة وانحنى، كل العصافير تفعل هذا، هذا بلبل  
يغنى وحيدا منفردا قلت انه لايشبه البلبل، أفضل ان اطلق عليه  
اسم الشحورور، - : من أين أتيت بهذا الاسم، هذا الاسم يطلق على  
انواع تعيش فى غير بيئتنا، عموما اذهب لايقاظ الصغير فالיום  
اسبقه إلى المدرسة لاستقبال الأطفال، لا تنسى كراساته ولا  
تنسي..... قائمة طويلة، مازلت أحاول أن أنتزع صوت تغريده من  
أذنى ومع كل أصوات الأوامر التى تصب صبا، مازال يشدو  
منتها أول فرصة، ربما حفظت اللحن عنه، ربما لأن من المدهش أن  
تكتشف شيئا لم يخطر لك من قبل، أسرعرت إلى المدرسة أجر  
الصغير وقد داعب جفونه رغبة أكيدة فى النوم، ومع إيقاعات نشيد  
الصباح، وصياح مدرسى الفصول، انتبه الصغير وظل يردد ما  
يقولون، كان يقف حائراً وحيداً حتى أخرجته أمه من وحدته  
وساقتة نحو فصول الكيجيهات، من بعيد راقبتها وهى تدخله  
توصى به مدرسة الفصل، - : لا تخف يا صغيرى أنا فى الفصل  
المجاور يمكنك أن ترانى، اجتزت أعتاب المدرسة نحو الشارع وأنا  
أتذكر كمّ الأناشيد التى علقت بالذاكرة فى الصغر، كانت عقولاً  
بيضاء، حتى إن الناظر سألنا من يحفظ نشيداً ليلقيه فى أول يوم

بالمدرسة الابتدائية، وقتها كانت الدراسة تتم للصغار لمن هم فى السادسة وبضعة أشهر، مغرد صغير خارج السرب، حسبت ان شعر شوقى يمكن ان يقال فى روضة الأطفال، قال لى وقتها انظر إن أغلب زملائك لم تطل عقولهم على ذلك النشيد، فصحت فى نشيجٍ مكبوت قائلاً: ولكن أحمد شوقى قالها لأطفاله ولأحفاده وقد فهموها وحفظوها!! قال: وتعرف لمن قيلت أيضاً أحيى ذلك لابد أن تذكر لوالدك إننى أريد أن أراه... بعدها لم يكن لزاما على حفظ شيء من الشعر كالسابق، غير أننى ظللت أعانقه طوال العمر...:-  
صداح ياملك الكنار ويا أمير البلبل، قد فزت منك بمعبد ورزقت قرب الموصلي، قال لى ذات مرة -: إننا يجب أن ننتبه للأشياء حولنا حيث تختلف وتخفق، أحب أن أتذكره دائماً مشرقاً، متفائلاً، كانت أروع الأشياء فيه كان هناك متسع من الوقت، ذهب حتى أراه، اليوم هو أول يوم لحفيدك فى المدرسة، كان خائفاً جداً، لكن أمه معه وهي.. ربما، بالطبع قال نشيداً، أنكره وقتها ومن وقتها، أتصور إن الكل يغنى من قال إن الوجود بلا ألحان، نعم لو تعلمون ذلك، فستتصروا..... فى النهاية.